الاستحالة والتناقض

واذا كان قدامة عد الغلو نعوت (محاسن) الشعر ، فقد جعل (الاستحالة والتناقض) من عيوب المعاني في الشعر . والتناقض ان يذكر في الشعر شيء ويجمع معه مايقابله (اي ماينا قضه) ... وينشأ هذا ..

١ . عن طريق الاضافة كالاب والابن . والعبد والمولى .
٢ . عن طريق التضاد كالشر والخير . والاسود والابيض . والحار والبارد ...
٣ . عن طريق الوجود(٥٩) والعدم كالعمى والبصر .
٤ . عن طريق النفي والاثبات كقولنا زيد جالس .. وزيد ليس بجالس(٦٠) ويبدو قدامة هنا متابعاً ارسطو الذي يرى في كتاب (المقولات) ان الاشياء تتقابل على اربع جهات(٦١) .

ان الجمع بين هذين في معنى واحد او شيء واحد غير مقبول . فلا يجوز مثلاً ان نصف احداً بأنه اعمى وبصير في وقت واحد . (او كما يقول من جهة واحدة) غير انه يجوز ان نقول عن الشيء نفسه انه بارد بالقياس الى ماهو حار بالقياس الى ماهو بارد (اي ان يوصف بهذين المعنيين من جهتين) .

وقد جاء في الشعر من الاستحالة والتناقض مالاعذر فيه . لانه جمع بين المتضادات من جهة واحدة . فالتناقض الذي جاء عن طريق (من جهة) الوجود والعدم قول ابن هرمة .

تراه اذا ماابصر الضيف مقبلاً
يكلمه من حبه وهو اعجم

فالشاعر منح الكلب ملكة الكلام في قوله (يكلمه) ، ثم اعدمه اياها في قوله (وهو اعجم(٦٢) . واضاف قدامة مجللا اعتراضه ((... من غير ان يزيد في القول مايدل على ان ماذكره انما اجراء على طريق الاستعارة))(٦٣) . وهذا تعليل غير

---

(٥٩) يستخدم قدامة كلمة (قنية) السريانية وتعني (ملكة في النفس) وهي هنا بمعنى الوجود مقابلاً للعدم .
(٦٠) نقد الشعر ١٩٩ وما بعدها .
(٦١) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٠٢ وانظر ايضاً مقدمة بوينبابكر في تحقيقه لكتاب نقد الشعر (ليدن ١٩٥٦) ص ٤١
(٦٢) نقد الشعر ٢٠٤ ـ ٢٠٥
(٦٣) المصدر السابق ٢٠٥

مقبول . ولو كان قدامة قد ادرك ان الشاعر لم يرد بقوله ((يكلمه من حبه)) المعنى الحقيقي بل المجازى لما بدا له تناقض في الصورة . ومن الغريب ان نلاحظ ان قدامة لم يعط المجاز حقه في التحليل فكأن الشعر عنده خلو منه . فهو لم يتعرض لصور المجاز الا فيما اسماه المعاظلة التي اعدها من عيوب اللفظ(٦٤) . العاظلة عنده هي الاستعارة الفاحشة

والقبيحة كما في قول الشاعر

وذات هدم عار نواشرها
تصمت بالماء تولبا جدعاً

فسمى الصبي (تولبا) وهو ولد الحمار . وقول الاخر

وما رقد الولدان حتى رأيته
على البكر يمريه بساق وحافر

فسمى رجل الانسان حافراً وهو للحيوان(٦٥) .

ويقول قدامة ((وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين اشياء من الاستعارة ليس فيها شفاعة كهذه . وفيها لهم معاذير اذا كان مخرجها مخرج التشبيه)(٦٦) .

ورأيه مردود من اكثر من وجه . فالاستعارة في البيتين ليست في زعمنا فاحشتين فقد استخدم الشاعر الاول كلمة (تولب) استثارة لعطف السامع على هذا الصبي الفقير واستخدام الشاعر الثاني كلمة (حافر) في موضع الهجاء والتحقير والسخرية كما فعل المتنبي في هجاء كافور .

واسود مشفره نصفه
يقال له انت بدر الدجى

---

(٦٤) السابق ١٧٤ . والمعاظلة في الكلام تعقيدة وتركيب بعضه فوق بعض وهو من تعاظلت الجرادتان اذا ركبت احداهما الاخرى . والمعاظلة ايضاً مصطلح عروضي يعني ان يعلق الشاعر قافية بيت بما بعده على وجه لا يستقل بالافادة .

(٦٥) السابق ١٧٤ ـ ١٧٥

(٦٦) السابق

فشبه شفة المهجو بمشفر البعير لكبر حجمها ورسم بذلك صورة ساخرة ... من جهة اخرى فان الاستعارات جميعها تخرج مخرج التشبيه . تستوى في ذلك الاستعارات الرديئة والجيدة . ومهما يكن من شيء فان مايثير الدهشة حقاً ان يكون قدامة متأثراً بأرسطو ثم لايحفل بالتخييل ـ الاستعارة تخييل ـ احتفال ارسطو به .

وقد لاحظ د . احسان عباس مثل هذا عندما قال ((ان قدامة يهون من شأن الاستعارة))(٦٧) ولعل تفسير ذلك يكمن في ان قدامة جعل الشعر ـ كما فعل ارسطو ـ قسماً من اقسام المنطق . ويقول د . احسان عباس ((ان الاهتمام بالاستعارة يعني في بعض جوانبه الاهتمام بقوة الخلق عند الشاعر ولن نجد ناقداً مثل قدامة قصر حديثه كله على الشعر نفسه دون ان يلتفت الى الشاعر او المتلقي)(٦٨)

ولا ينبغي ان نقلل من قيمة هذه الملاحظة . اذ تترتب على ذلك مسألتان لا بد من الاشارة اليهما : ـ

اولاهما : الفصل بين الشعر من جهة والاخلاق والاعتقاد من جهة اخرى .

يقول قدامة ((وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر . كما لايعيب جودة البحار في الخشب مثلاً رداءته في ذاته))(٦٩) .

ويقول ايضاً ((ووصف الشاعر هو الذي يستجاد لاعتقاده . اذ كان الشعر انما هو قول . فاذا اجاد فيه القائل لم يطالب بالاعتقاد))(٧٠) .

وثانيهما : جواز التناقض في معاني الشاعر الواحد . يقول قدامة ((ومما يجب تقديمه ايضاً ان مناقضة الشاعر نفسه في قصيدتين او كلمتين بأن يصف شيئاً وصفاً حسناً ثم يذمه بعد ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتدار عليها)(٧١) .

---

(٦٧) تاريخ النقد الادبي عند العرب ٢٠٨

(٦٨) المصدر السابق

(٦٩) نقد الشعر ١٤ لابد من الاشارة الى ان الاصمعي سبقه في الفصل بين الشعر والاخلاق .

(٧٠) المصدر السابق ١٢٩

(٧١) المصدر السابق ١٣ ـ ١٤

نستنتج من ذلك ان مايجعل الشعر شعراً في رأي قدامة هو الشكل والصياغة وليس المعنى . يقول (ومما يجب تقدمته وتوطيده قبل ماأريد ان اتكلم فيه ان المعاني كلها معرضة للشاعر . وله ان يتكلم منها في ماأحب واثر من غير ان يحضر عليه معنى يروم الكلام فيه . اذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة . والشعر فيها كالصور كما يوجد في كل صناعة من انه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة))(٧٢) .

وهذه النقول تنطلق من كون الصياغة او الشكل تحتل الموقع الاول في معايير الحكم على الشعر بالجودة او بالرداءة . وعلى هذا فليس السبق في المعاني مما يعطي الشاعر فضلاً على غيره او سبقاً يفخر به . يقول قدامة ((وقد يضح الناس في باب اوصاف المعاني الاستغراب والطرافة . ان يكون المعنى مما لم يسبق اليه . وليس عندي ان هذا داخل في الاوصاف . لان المعنى المستجاد اذا كان في ذاته جيداً . فأما ان يقال له جيد اذا قاله شاعر من غير ان يكون تقدمه من قال مثله فهذا غير مستقيم بل يقال لما جرى هذا المجرى طريف وغريب . اذا كان فرداً قليلاً . فاذا كثر لم يسم بذلك . وغريب وطريف هما شيء آخر غير حسن او جيد))(٧٣) ويعقب على مثل من يرى هذا الرأي ـ وهو شائع بين النقاد العرب ـ بالقول ((ان الوصف فيه (اي الوصف بالسبق) لاحق بالشاعر المبتديء بالمعنى الذي لم يسبق اليه لا الى الشعر))(٧٤) بمعنى ان الاهتمام بأسبقية المعاني مسألة ذات صلة بالشاعر لا بالشعر . ونحن نعلم ان قدامة فصل بين الشعر والشاعر ووجه عنايته التامة الى الشعر . طبيعته واجناسه . ولم يعن بالشاعر على نحو مافعله قبله مثلاً .. كابن سلام وابن قتيبة .

وينبني على هذا الموقف ـ السبق الى المعاني ـ ان قدامة لم يتحدث ابداً عن السرقات . على الرغم من ان هذا الموضوع شغل بال النقاد والبلاغيين العرب جميعاً .

وقد علل قدامة سر اهتمام النقاد قبله بقضية السبق الى المعاني بأنه اهتمام بالشاعر لا بالشعر . ((واحسب انه اختلط على كثير من الناس وصف الشعر بوصف

---

(٧٢) المصدر السابق ١٣

(٧٣) المصدر السابق ١٤٧

(٧٤) المصدر السابق ١٤٨

(٧٥) المصدر السابق

الشاعر . واذا تأملوا هذا الامر نعماً ، علموا ان الشاعر موصوف بالسبق الى المعاني وآستخراج مالم يتقدمه احد الى استخراجه الا الشعر)) .

وعلى الرغم من احتفاء قدامة الشديد بالمعاني (٧٦) . فهي عنده بمنزلة المادة التي يعمل عليها الشاعر لا اكثر . والمعاني مباحة للشعراء . والذي يميز شاعراً من آخر هو صياغته . لان الشعر ـ كما يقول ـ صناعته شأنها في ذلك شأن اي صناعة اخرى . تصل الى مرتبة الجودة والكمال اذا كان العلم باجزائها سليماً . وقد تتدنى ان لم يكن الشاعر على علم حسن بصناعته . والى مثل هذا يذهب الاستاذ طه احمد ابراهيم اذ يقول ان قدامة لم يكن يرى في الشعر غير الشكل(٧٧) .

في حين ان د . بدوي طبانة يقف موقفاً وسطاً . يقول ((وقد عالج قدامة عناصر الشعر جميعاً بحدية تامة لاتلمح فيها اثراً لتفضيله عنصراً فيها على غيره بل انه نظر اليها جميعاً على انها عناصر اساسية لا يقوم الشعر الا باستيفاء كل منها(٧٨) .

والحقيقة ان ليس في موقف قدامة مايشي بأولوية المعنى على الصورة (الشكل او الصور على المعنى . فقد كان همه ان يطرح تصوراً عن الشعر بوصفه مادة (معنى) تقع عليها صورة (او شكل) . فالمادة مشتركة . والصورة هي الصناعة الشعرية .

يقول قدامة «« ان بنية الشعر هو التسجيع والقافية . وكلما كان الشعر اكثر استعمالاً كان ادخل في باب الشعر ، واخرج له عن مذهب النثر)(٧٩) وليس من شك في ان الوزن والقافية تميز الشعر من النثر ، لكنها لاتميز شاعراً من آخر . (لان الوزن واقع على جميع لفظ الشعر)(٨٠) ولان قدامة لم يكن يكتب في اوزان الشعر وقوافيه ، وانما في صناعة النقد ، وتمييز الشعر الجيد من غيره . كان لا بد له من البحث عن الصورة التي تجعل الشعر جيداً من غير الوزن والقافية .

ونظن ان المركبات التي تنتج عن ائتلاف عناصر الشعر الاربعة (اللفظ والمعنى والوزن والقافية) مع بعضها البعض هي مايكون البيت الشعري او القصيدة على الرغم من ان قدامة لم ينص على هذا صراحة . لكن الباحث لايمكن الا ان يتصور

---

(٧٦) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٩٥

(٧٧) تاريخ النقد الادبي عند العرب ١٤٠

(٧٨) قدامة بن جعفر والنقد الادبي ٢١٠

(٧٩) نقد الشعر ٥١

(٨٠) المصدر السابق ١٩

ان بعض الانماط والاشكال التي تنتج عن ائتلاف هذه العناصر تمثل الصورة التي يستطيع الشاعر ان يقدم بوساطتها وعن طريقها المعنى الذي يريد . فما ينتج عن ائتلاف اللفظ والمعنى : ـ

١ . المساواة
٢ . الاشارة
٣ . الارداف
٤ . التمثيل
٥ . المطابق والمجانس

وما ينتج عن ائتلاف القافية مع المعنى : ـ

١ . التوشيح
٢ . الايغال

اما ائتلاف اللفظ مع الوزن فلم يذكر قدامة اشكالاً محددة له . كل ما في الامر انه اشار الى ان يراعي الشاعر ((ان لايكون الوزن قد اضطر الى ادخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجاً اليه .. ولم آت في هذا الباب بأمثلة . لان كل شعر سليم مما ذكرت مثال لذلك))(٨١) .

وكذلك حال ائتلاف المعنى مع الوزن . فهو ((ان تكون المعاني تامة مستوفاة ، لم تضطر باقامة الوزن الى نقضها عن الواجب ، ولا الى الزيادة فيها عليه))(٨٢) . وقد كان جديراً بقدامة ان يشير الى ماهو ابعد من ذلك فيسآل ان كان ثمة علاقة بين الوزن والمعنى ، على نحو مافعل بعده حازم القرطاجني .

ولا بد من الاشارة الى دلالات هذه والمصطلحات عند قدامة . لان بعضاً من مصطلحاته يختلف بدلالاته عن غيره من البلاغيين ....

ولن نشير الى المصطلحات ذوات الدلالة الواحدة عنده وعند غيره .. انما سنشير الى المصطلح الذي يرد عنده بدلالة اخرى .

فالاشارة عنده هو الايجاز عند غيره(٨٣)

والارداف عنده هو الكتابة عند آخرين(٨٤)

---

(٨١) المصدر السابق ١٦٤ ـ ١٦٥
(٨٢) المصدر السابق ١٦٥
(٨٣) المصدر السابق ١٥١
(٨٤) المصدر السابق ١٥٤

والتوشيح عنده قريب الصلة بما يسميه البلاغيون رد العجز على الصدر(٨٥)

وقد ينبغي ان نضيف الى ان من الشكل ما جعله قدامة في باب (نعوت المعاني) التي تعم (جميع المعاني (الاغراض) الشعرية)(٨٦) وهي (صحة التقسيم) و (المقابلة) . وهي اقرب ماتكون الى المطابقة في بعض شواهدها ثم (التكافؤ)(٨٧) .

هذه الانماط من التعبير ((تشير الى ان التوصيل الشعري يعرض المعنى بواسطة سلسلة من الاشارات الى عناصر اخرى متميزة ولكنها يمكن ان ترتبط بالمعنى بشكل او آخر . اما عن طريق التبعية او الارداف او عن طريق الدلالة الضمنية او التمثيل . اي ان التوصيل الشعري ... صياغة مجازية . وذلك عن طريق تمثيل العام بالخاص))(٨٨) .

ومن خصائص الشكل الشعري ـ وان لم يكن ضرورياً ولازما في كل نص ـ التسجيع داخل البيت . او مايسميه قدامة (الترصيع) ((وهو ان يتوخى فيه (الشاعر) تصيير مقاطع الاجزاء في البيت على سجع او شبيه به او جنس واحد في التصريف))(٨٩) ان الامثلة التي يقدمها قدامة على انها من نماذج الترصيع اقرب ماتكون الى التقسيم بمعناه العام . اي تقطيع البيت الى اجزاء او وحدات صوتية يحسن الوقوف عند كل وحدة .

---

(٨٥) المصدر السابق ١٦٦

(٨٦) المصدر السابق ١٣٠

(٨٧) المصدر السابق ١٣٣ ، ١٤١

(٨٨) مفهوم الشعر ١٠٤ ، ١٠٥

(٨٩) نقد الشعر ٣٢ .